ثم ترامت إليه أنباء بأن عفراء لم تمت، ولكنها تزوجت، فثارت ثائرة عروة، وصبَّ جام غضبه على عمه الذي خدعه مرتين؛ مرةً حين منَّاه بعفراء، ودفع به إلى الأرض البعيدة خلف مهرها، ثم خدعه مرة أخرى حين لفَّق له قصة موتها، وتركه فريسة أحزانه ودموعه.

عفراء وعروة بن حزام

عروس جميلة.. من يشتري

هي من أقدم قصص الحب العذري تاريخيًا، حيث أنه من المعلوم أن عروة هذا مات في خلافة سيدنا عثمان بن عفان.

كان عروة بن حزام بن مهاجر الضبي، من بني عذرة، شاعر، من متيمي العرب، عاش في بيت عمه والد عفراء بعد وفاة أبيه وهو صغير السن، وتربَّيا مع بعض وربط الحب بين القلبين الصغيرين منذ طفولتهما المبكرة، وشبَّ مع شبابهما.

فلما شبَّ عروة تمنى أن يتزوج عفراء، فأرسل إلى عمه يخطبها إليه، ووقف المال عقبة في طريق العاشقين، فقد غالت أسرة عفراء في المهر، حيث كانت أم عفراء تريد زوجًا ثريًّا يدفع مهرًا كبيرًا لابنتها، وعجز عروة عن القيام به.

وألحَّ عروة على عمه، ولكن راح والدها يماطله ويمنِّيه الوعود، لم يجد عروة بدًّا من السعي عند عمٍّ له ثري في اليمن طالبًا عونه، وفي أثناء غيبته قدم أمويٌّ غنيٌّ من الشام، ونزل بحيِّ عفراء، ورآها فأعجبته، فخطبها من أبيها، ثم تم الزواج رغم معارضتها، ورحل بها إلى الشام حيث يقيم.

وعندما عاد عروة محمَّلًا بمهرها أخبره عمه أن عفراء قد ماتت، وأراه قبرًا جديدًا وقال له إنه قبرها، فلزم هذا القبر، يبثُّه آلامه، ويندب حظه، ويبكي حبه الضائع ومأساته الحزينة، ويذيب نفسه فوق أحجاره حسرات ودموعًا، فقد فقد حبيبته ورفيقة صباه.

ثم ترامت إليه أنباء بأن عفراء لم تمت، ولكنها تزوجت، فثارت ثائرة عروة، وصبَّ جام غضبه على عمه الذي خدعه مرتين؛ مرة حين منَّاه بعفراء، ودفع به إلى الأرض البعيدة خلف مهرها، ثم خدعه مرة أخرى حين لفَّق له قصة موتها، وتركه فريسة أحزانه ودموعه، فمضى يهجوه:

فيا عمُّ يا ذا الغَدْرِ لا زِلْتَ مُبْتَلىً

حليفًا لهمٍّ لازمٍ وهوانِ

غدرتَ وكانَ الغدرُ منكَ سجيّةً

فَأَلْزَمْتَ قلبي دائمَ الخفقانِ

وأورثتني غمًّا وكربًا وحسرةً

وأورثتَ عيني دائمَ الهملانِ

فلا زِلْتَ ذا شوقٍ إلَى مَنْ هويتهُ

وقلبكَ مقسومٌ بِكُلِّ مكانِ

وانطلق عروة إلى الشام، ونزل ضيفًا على زوج عفراء والزوج يعرف أنه ابن عم زوجته ولا يعلم بحبهما بطبيعة الحال، ولأنه لم يلتقي بها بل بزوجها فقد راح هذا الأخير يماطل في إخبار زوجته بنبأ وصول ابن عمها، ففكَّر عروة في حيلة عجيبة، فقد ألقى بخاتمه في إناء اللبن وبعث بالإناء إلى عفراء مع إحدى الجواري.

وأدركت عفراء على الفور أن ضيف زوجها هو حبيبها القديم قد عاد فتلتقي به، والتقى عروة بعفراء يتذكران ماضيهما السعيد، وما فعلت بهما الأيام، ولكن سرعان ما أدرك عروة خطأ ما يفعله فصمَّم على العودة إلى وطنه حرصًا على سمعة عفراء وكرامتها، واحترامًا

لزوجها الذي أحسن وفادته وأكرم مثواه، ورحل عروة بعد أن زوَّدته عفراء بخمارٍ لها ذكرى منها.

وفي أرض عذرة ساءت أحوال عروة، واشتدَّ عليه الضنى، واستبدَّ به الهزال، وألحَّ عليه الإغماء والخفقان، وأخذه مرض السل، وعجز الطب عن علاجه.

فلجأ عروة إلى الشعر يبثه آلامه وأحزانه، ويصور فيه ما يلحُّ على نفسه من أشواق وحنين، وما يضطرب بين جوانحه من أسى ووجد، فيقول:

تحمّلتُ منْ عفراءَ ما ليسَ لي بهِ

ولا للجبالِ الرّاسياتِ يدانِ

كَأَنَّ قَطاةً عُلِّقَتْ بِجَناحَيَا

على كبدي منْ شدّةِ الخفقانِ

جعلتُ لعرّافِ اليمامةِ حكمهُ

وَعَرّافِ حَجْرٍ إنْ هما شَفيانِي

فَقالاَ: نَعَمْ نَشْفِي مِنَ الدَّاءِ كُلَّهِ

وقاما مع العُوَّادِ يُبتَدَرانِ

ودانَيْتُ فيها المُعْرِضُ المُتَوَانِي

لِيَسْتَخْبِراني. قُلْتُ: منذ زمانِ

فما تركا من رُقْيَةٍ يَعْلمانِها

ولا شُرْبَةٍ إلاَّ وقد سَقَيَانِي

فما شفا الدّاءَ الّذي بي كلّهُ

وما ذَخَرَا نُصحًا، ولا أَلَوانِي

ثم مات عروة وهو يهذي باسم عفراء ويحادث طيفها، وبلغ النبأ عفراء، فاشتدَّ جزعها عليه، وذابت نفسها حسرات وراءه، وظلت تندبه وتبكيه وامتنعت عن الطعام والشراب حتى لحقت به بعد فترة وجيزة، ودفنت في قبر بجواره.